الشريف غالب يسترد مكة من الموحدين

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢١٨ هـ . ما يأتي :

(.. وفيها رحل الشريف غالب بعسكره من جدة الى مكة ، ونزل أهل القصور الذين رتبهم سعود فيها ، كما تقــدم ، فأخرجهم منها بالأمن واستولى على مكة .)

هذه هي رواية ابن بشر عن استرداد مكة وهي تدهش بإيجازها وغموضها ، مع ان الحادثة جليلة الشأن ، وقد كان ابن دحلان أكثر عناية بأخبارها ، فنوّه بخطورتها وسمّاها « غزوة الفتح » ، وهو اسم يبدو لنا مضحكاً حين نعلم ان جنود الترك كانوا وراء هذا الفتح ، ولكنه بيّن لنا ، على كل حال ، ان الحامية السعودية لم تستسلم دون قتال .

يقول ابن دحلان ان الشريف غــالب توجه من جدة الى مكة لإخراج من فيها من جماعة سعود وأبي نقطة ،وان والي جدة التركي شريف باشا كان يصحبه ، وكان معهما (كثير من العساكر والجنود وثلاثة مدافع ، منها مدفع كبير أهداه له إمــام مسقط) ، فنزل أولاً بالزاهر ، ثم أرسل العساكر والعبيد وأحاطوا بالقلعة التي بجياد، وفيها من خلفهم سعود، وترسوا البيوت التي تليها وحصروهم أشد الحصار .

ودخل الشريف مكة بعد الاشراق ولم ينازعه الشريف عبدالمعين فيما يروم.

ثم رتب بعض العسكر وأمرهم أن يحيطوا بالبستان الذي فيه من خلفهم أبو نقطة ، وأثار الحرب عليهم وركب عليهم المدفع ، وصنع لغماً تحت الأرض،

فلما أثاروه رفع البرج الى الجو بمن فيه من الجند،ومع ذلك ما برحوا عن القتال، فطلب مدفعاً كبيراً من جدة ، لا يمكن سيره بدون خمسين بعيراً ، فلما وصل رموا به جدار البستان ، فصار في كل رمية يطرح جانباً من البنيان ، حتى وقع منه شيء كثير ، فطلبوا الأمان فأعطاهم الأمان ، واستأجر لهم جمالاً يتوجهون عليها الى بلادهم [1] .

وأما الذين في القلعة فما فتر العسكر عن قتالهم ، وكان يخرج جماعة منهم بالليل ويحرقون بعض العشش ويعودون الى القلعة ، ونزل جماعة منهم يوماً في ضحوة النهار ونهبوا أغناماً فتفازعت العسكر عليهم فرجعوا الى القلعة ، فوضع الشريف لهم حرساً لئلا يخرج أحد منهم من القلعة .

وبعد ثلاث أو أربع ليال هربوا من القلعة في جنح الليل .

وما طلب الذين كانوا في البستان الأمان إلا بعد علمهم بخروج الذين كانوا في القلعة ، وكانت مدة الحصار للجميع ٢٥ يوماً .

تلك رواية ابن دحلان ، ولم يغفل الجبرتي ، في تاريخه ، قصة عودة الشريف غالب الى مكة ، ولكنه لخص القصة بكلمة غريبة جداً ، مع شدة تحرّيه المحق ، وما ندري كيف تورّط فيها ، قال :

(.. رجع الشريف غالب الى مكة .. ورجع كل شيء الى حاله الأول ، وردّ المكوس والمظالم .)

وهذا الكلام قد يوهم ان المكوس والمظالم جرت في فترة النفوذ السعودي – أيام عبد المعين – مع ان المستشرق بركارت ، الذي كان مقيماً في مكة قريباً من هذا الوقت ، شهد شهادة حق ، وهي ان الوهابيين أحسنوا الدخول الى مكة ولم يرتكبوا فيها أية مظلمة [2] .

---

(١) يقول النعمي في تاريخه ان عدد حامية عسير في مكة كان ٤٠٠ .

(٢) يذكر ابن بشر حادثة استرداد الشريف لمكة بعد غزوة سعود للعراق في ولايته ، مع انها تمت في ولاية عبد العزيز ، وكان يجب تقديمها ..